الزائر الأسود

الزائر أخطبوط ·· مارد يكتسح ويدمر ·· يحط فى أى لحظة بلا انذار ولا مقدمات ·· أسود فى ظلام الليل ·· أسود فى بياض النهار ·· أحمق ·· يودع فى القلوب الحسرة وفى الصدور احتراق ·· ونادرا ما يلبس لباسا أبيض ·· أو هكذا نراه ·· عندئذ نتمنى أن يأتى فنعد اللحظات ·· ويبعث تثاقله فى نفوسنا الضيق والاختناق ·

كان فى هذه المرة قاتم السواد ·· أشد قسوة وحماقة ·· فقد انتزع الزهرة الوحيدة اليانعة ·· اختطفها ومزقها أشلاء ·· انسل الى المحراب دون استئذان ·· فانه يعلم أنه ضيف ثقيل لا يؤذن له بالدخول ·· المحراب قاعة ترزح بالفنون ·· استطالت يداه لتنتزع روح هذا المكان ·· وغدت التماثيل بلا روح ·· وكانت بالأمس أحياء ·· أو هكذا يراها الفنان ·· الآدمى الوحيد بالقاعة الكبيرة ·

اختفت الجوهرة فاختفى الفنان من عالم الفن .. يوم ويوم وأيام .. وأخيرا عاد .. عاد يفتح « الأتيلييه » أو القبر .. الباب يرسل أزيزا عده نواحا .. يتلاشى الأزيز حين يصطك الباب .. ويعود المكان يرزح بالسكون والجمود .

فى القاعة الكبيرة .. المحتويات مبعثرة .. والأدوات متناثرة على المنضدة .. وفوق الرفوف والأشياء .. متفرقة كأشلاء .. أو أنها رفات .. التماثيل رابضة .. ترنو فيه .. تواسيه .. تتوسل اليه .. أو أنها تعاتبه على أيام الفراق وتبثه الآلام .. المكان رهيب .. بارد .. موحش .. كل شىء تلون بلون التراب .. والفنان تحمل عيناه اللامبالاة .. استقرت نظرته على المقعد الوحيد .. أشاح بوجهه ليقع بصره على أشياء ومواقع بعينها .. تنفس بعمق .. لوى طرفه شطر الباب .. هرولت قدماه اليه .. فتحه .. بقى لحظات .. عاد وأغلق الباب دون العالم الخارجى .. لعله لا يطيق أن يرى أبناء البشر .. ولعله فقد حبه للوجود .. أو أنه لا يجد نفسه الا فى « الأتيليه » .. أيادى وهمية تجتذبه نحو الداخل .. أيضا وقف أمام المقعد .. يتلمس أجزاءه بعينيه .. دنا منه .. التصق به .. براحته تحسس مسنده .. توقفت حدقتاه .. عاد بذاكرته الى الوراء قبل زيارة المارد .. الانفعالات تتبدل وتختلط على محياه .. طغى تعبير اليأس .. مر وقت .. دقائق أو ساعات .. صحا من شروده وقد عقد أمرا فشفتاه مضمومتان .. وفى عينيه اصرار .. أخرج من جيبه زجاجة سوداء .. الزجاجة تلمع وتبرق .. وضعها أمامه .. بريق الزجاجة يشتد فى عينيه .. أخالها تبتسم .. افتر ثغره عن ابتسامة كالحة .. مد يمناه المرتعشة الى الزجاجة .. تأمل الزجاجة .. تأمل يده .. قطرات العرق تنساب على جبهته باردة .. شحب لونه وغارت عيناه .. قرب الزجاجة الى فمه .. الابتسامة الكالحة

تملأ وجهه .. ألقى على المقعد نظرة وداع .. جمدت عيناه من فرط الدهشـــة .. كأنها تجلس على المقعد .. هى بعينها .. قدهـا المشوق .. وداعتها .. حمرة تلون خديها .. هى بسحر عينيها .. بخصلات شعرها المتهدل الفاحم .. ونفس الخصلة العنيدة تتأرجح فى نفور .. كأنما بعثت .. أيضا تفتح فاها .. ويسمع صوتها أكثر رقة وحنانا :

ـ لا تقدم بالله عليك .. لا تضعف .. يجب أن تكون .. من أجلى يجب أن تتمسك بأهـــداب الحيـــاة لتمتد حكاية حبنا العظيـــم ..

وصوته الجاف يجيب فى مرارة :

ـ كيف أحيا بعدك .. والهول يحوطنى والعذاب لا يمهلنى .. والنوم لا يطأ عينى .. الموت راحة ولألقاك وألحق بعالمك .. فلا أكون الا بك .. فأنت روحى .. وكيف أحيا بلا روح ؟

ويعلو صوتها قليلا :

ـ لست ملكا لنفسك .. بل أنت للآخرين .. لقد حرمك الموت منى .. ولكن بموتك ستحرم كل الدنيا منك .. أنت فنان .. والوجود يحتاج اليك .

ـ شوقى اليك أقوى من عزمى .. لا حيلة لى بعد أن أضنانى الشوق .. لا حيلة ..

اقتربت فوهة الزجاجة من فمه حين ملأت صرخاتها القاعة .. وترددت بين الجدران .. كأنما يصرخ عالم بأسره .. ترك الزجاجة بين أنينه .. وبين دموع كانت أبيه سفحتها عيناه .. وأطبق صمت ..

وعاد يستطرد حديث الخيال :

ـ من أجلك كنت أتوق الى الفناء ·· ومن أجلك سأتشبث بالحياة ·

لم يجدها على المقعد ·· تنقل بصره بين الأشياء وفى جنبات القاعة ·· هز رأسه ثم تهالك على المقعد ·· وها هو يصحو من غفوته ·· عيناه تلمعان بالحياة ·· والدماء تسرى فى عروقه حارة ·· وقد بان فى وجهه الجد وافترش ببهاء الأمل ··

قام يعـد لعمل عظيم ·· وانبرت أصـابعه تعبر ·· تنقش أحاسيسه على الحجر الأصم ·· وبين آن وآخر كان يلتفت الى المقعد كأنما يستمد منه الحياة ·· ولأول مرة تزور الابتسامة وجهه منذ أن وورى جثمان حبيبته ·

انبرى يشكل الجثمان ·· أو يعيده للوجود ·· وقد كان حلما يراوده فى محياها ·· وكان الموت أسرع ·· لعنة الله على هذا الاخطبوط ·· الزائر الأسود ·· هذا الذى لا ينبه ولا يحذر ·· بل ينزل كالصاعقة كالحدأة يتخطفنا ·· يقتلع الورود ليدع قلوبا طعينة ·· ولا يفتأ أن يعود فيفتق الجروح المندملة فتعود لتنزف من جديد ··

كانت يداه تبدعان ·· وخياله سارحا ·· وعيناه على المقعد يرى حبيبته كما كانت ·· وعيناها الصافيتان لا تمل التعبير عن الوجد ·· سهر ليالى طويلة ·· ليلة اثر أخرى ·· لا يدرى بالزمن ·· ولا يلتفت لعقارب الساعة ·· ولا يطعم الا بقدر ما يعينه على الاستمرار ·· نسى الدنيا بل هجرها ·· فصومعته هى الدنيا بأسرها ·· مشاعره تتدفق ·· ووجدانه يمنح بسخاء ·· وأصابعه تتقن صنع أحاسيسه ·· تتلمس ملامحها ·· وتهندم خصـلات

شعرها ·· وتريح الخصلة النافرة على صدرها ·· يروح ويغدو ·· يدور حولها ثم يدور ·· مسترسلا فى ابداعه دون كلل أو عناء ·· وعيناه ما زالت تتناقلان بين طيفها المتربع عـــلى المقعد ·· وتمثالها الذى ما لبث أن وضحت معالمه ·· وملامحها بدت رائعة كحقيقتها ·· وكما يراها بعينيه ·· أكثر روعة مما تشكله يداه ·· واختار لها نظـــرة ·· بث فيها كل أحزانه وأودعها فى مقلتيها ·

الصحف تعلن ·· مسابقة لصاحب لقب الفنان العظيم لأروع التماثيل ·· رنا اليها فى اعجاب ··

اتسعت ابتسامته :

ـ أيكون هناك من هو أكثر روعة منك ؟ !

تأمل أصابعه :

ـ أهذه الأصابع خالقة كل هذا الجمال ·· ؟!

تطلع الى المقعد حين غشيت الدموع عينيه :

ـ لولاك ما أبدعت يداى ·· من أجلك سيرون ما صنعت ·· فأنت خالقة مشاعرى ·· وحين يسألونى عن النموذج ·· سأبتسم فى دهاء ·· وأقول لهم ·· انه هنا فى مخيلتى ·· فى قلبى وكل جوارحى ·· أمام عينى ·· وعينى لا ترى سواه ·

جاء يوم المحفل للاختيار ·· التماثيل خلف الستائر بعيدة عن العيون ·· وفنانونا يذرع القاعة جيئة وذهابا ·· عيناه تخترقان الستائر باحثة عن تمثاله ·· عيون الجماهير عليه تحمل تعبير الاستغراب ·· تتفحص عينيه العميقتين وعظمت وجنتيه البارزتين وشعره المنفوش المتطاير ·· وهو لايدرى من أمره ولا من أمرهم شـــيئا ··

أزيحت الستائر .. كأنما أزيحت الأكفان .. بانت التماثيل في أشكال متباينة .. كلها تؤكد المعاناة وعن تمثاله أزيح الستار .. استطال عنقه واتسعت عيناه كأنما تضمها .. تدفقت الجماهير وتزاحمت .. برقت العدسات .. مرت ساعة وأخرى .. وأعلنت النتيجة .. وكان قد قرأها في عيون الجماهير والحكام .. وعرفها من خلال تعبيراتهم وصيحات اعجابهم .

رأى عينيها وقد زال عنها الحزن الى الفرحة .. انها تلوح له وتغبطه .. بل تتأبط ذراعه في زهو .. وأنفاسها تلفح وجهه .. يلمع في عينيها الدموع .. لا بد أنها دموع الفرحة من أجل نجاحه الكبير .. كل العيون على النحات .. عدسات المصورين تلتقط كل حركاته وسكناته .. والصحفيون يمطرونه بأسئلتهم .. وهو يقول ويقول .. لا يدري ماذا يقول .. فالقائل جوارحه وما يبعث النشوة في قلب حبيبته الراحلة ..

لم يستطع تيار الجماهير الجارف زحزحة الفنان بعيدا عن تمثاله .. فقد تسمر أمامه .. والناس من حوله يترنمون باعجابهم .. تتناقل أبصارهم في عجب بين التمثال ومبدعه :

ـ أهذا الواهن هو مبدع كل هذا الجمال .. أو تلك اليدان المعروقتان صانعة هذا التمثال العملاق ؟!

شق الجمع رجال أشداء .. قصدوا التمثال الرائع .. هموا بحمله .. قفز اليهم سائلا :

ـ الى أين ؟

ـ الى المتحف طبعا !

ـ الى المتحف ؟! .. أ .. أتقصدون صومعتي ؟ ؟

تبادل الحمالون نظرة تساؤل .. وعادوا ليتعاونوا فى حمل التمثال .. استحلفهم بالانتظار لم يأبهوا باستعطافه .. بل رفعوا التمثال .. فبان جميلا أخاذا .. وبدا الوجه قمرا منيرا ..

أمسك الفنان بأحدهم .. حين اعترضه مسئول المعرض .. ليقول له مداعبا :

ـ لقد أصبح التمثال من حـــق الدولة .. وسيوضع فى المتحف ليراه العالمين .

ـ بل .. بل انه تمثالى .. ألست صانعه ؟ !

ـ التمثال ملك للبشرية ...

ـ بل هى ملكى أنا .. لقد .. لقد عاهدتنى .

ـ من تقصد يا سيدى ؟ ! !

ـ أ.. أقصد تمثالى .. امنعهم ياسيدى .. مرهم أن يقصدوا منزلى ..

ـ بشرى لك يا سيدى فقد أخذت أعظم الألقاب .. وغدا ستتسلم مكافأة كبيرة .. و ..

ـ لا أريد .. بل .. بل أريدها هى ..

ابتعد الحمالون قليلا طفرت الدموع من عينى النحات المسكين .. التفت بجانبه ليجد الرجال قد نأى عنه .. نادى عليه وكرر النداء .. لم يلتفت اليه .. ولم يشك أنه قد أصيب بالجنون .. تلفت فى كل ناحية باحثا عمن ينقذه ويعيد اليه تمثاله .. وجدهم جميعا يضحكون منه .. ويعتبرونه مشهدا هزليا مثيرا ممتعا ... التمثال يبتعد .. الزحام من حوله كأنهم فى جنازة :

– سيدفنوها مرة أخرى ! .. أو يدفن الانسان مرتين؟ ! .. و .. وكيف يدفن الأحياء ؟ ! !

تقافز خلف الجموع .. والكلمات تتساقط من فمه تمزق نياط القلوب :

– دعوا روحي .. لا أريد ألقابكم ولا أموالكم .. دعوها .. دعوا روحي !

استطرد فى هذيانه بلا سميع .. حتى العيون ملت رؤياه .. وعبثا حاول أن يشق طريقا الى تمثاله .. انطلق يصرخ .. وأيضا ذابت صرخاته فى الزحام .. بل ان أحدهم أزاحه فانطرح على الأرض طعينا مكدودا محطما .. طرحوه فسحقوا آماله .. ولعلهم داســـوه بأقدامهم ولا ريب أن أخذيتهم وطأت الفنان العظيم .. وقبلا سلبوه روحه ودعوه لليأس والضياع ...